

مدرسة مازونة الفقهية ودورها التاريخي والحضاري

عبو ابراهيم

أستاذ مساعد "أ"

جامعة: معسكر.

تحت إشراف.د. بوشناني محمد.

الملخص:

مدينة مازونة من المدن التاريخية العريقة في المغرب الأوسط، امتد تاريخها إلى جذور الحضارات القديمة، ومن الصعب تحديد تاريخ تأسيس المدينة لكن الرحالة الأسباني "مارمول" الذي قام بجولة عبر المغرب الإسلامي خلال القرن السادس عشر يرى أن مازونة مدينة قديمة بناها "الرومان" مستندا في ذلك على وجود الآثار الرومانية واللوحات المنقوشة بعد العثور على لآثار وقطع نقدية رومانية بالمنطقة¹. أما عبد الرحمن بن خلدون يذكر أن مازونة أسست على يد عبد الرحمن أبو منديل زعيم مغراوة في القرن الثاني عشر الميلادي (565هـ)، أما الإدريسي فإنه يذكر أن مدينة مازونة كانت موجودة منذ القدم قبل الإسلام لحوالي بضعة قرون،...وهي على ستة أميال من البحر شرقي حوض فروخ بين أجيالات أنهار و مزارع و بساتين وأسواق عامرة و مساكن مؤنقة، من أحسن البلاد بقعة و أكثرها فواكه وألبانا و سمنا و عسلا². أما الرحالة الألماني: هاينريش فون مالستان الذي زار المغرب سنة 1852م-1857م وتوقف عند مازونة وقال عنها: "أن مازونة يتراوح عدد سكانها ما بين 2000-3000 ن، تأخذ الطابع العربي بدون هندسة معمارية أوروبية...و دخلنا من باب بوابة الجنوب التي تقودنا مباشرة إلى الشوارع التي يجلس بها السكان مرتدين البرانس أمام منازلهم التي بها طابق واحد...وهي بلد جميل جدا له أصالة عربية تجلس على جانبي "وادي واريزان" الذي يصب في شلف منظر الحدائق لطيف يكتسي طابعا غذائيا موقعها طريف لها مياه عذبة يكمل جمالها في حب الرومان لها ثم الأمازيغ³.

هي مدرسة فقهية كانت متخصصة في العلوم الدينية كالفقه، والأصول، تفسير القرآن، دراسة علوم الحديث أسسها "سيدي محمد بن الشارف البلداوي" وكان من اللجيين الأندلسيين سنة 1029هـ/1619م، ودرس بها حوالي أربع وستون سنة وتخرج منها عدد كبير من العلماء الكبار في مختلف العلوم العقلية والنقلية، ثم توارثت المدرسة أحفاد مؤسسها وكان أبرزهم الشيخ بوطالب وهو محمد بن علي أبو طالب الذي أصبح شيخ الزاوية منذ 1189هـ/1775م وبقي مدرسا بها أربعاً وأربعين سنة إلى وفاته سنة 1818م.

Abstract.

The city of Mazona is one of the oldest historical cities in Central Morocco. Its history dates back to the roots of ancient civilisations. It is difficult to determine the date of the city's establishment, but the Spanish traveler Marmol, who toured the Islamic Maghreb during the 16th century, believes that Mazona is an ancient city built by the Romans. The presence of Roman monuments and engraved paintings after the discovery of Roman ruins and coins in the region.

Abdul Rahman bin Khaldun mentioned that Mazuna was founded by Abderrahmane Abu Mandil, the leader of Maghrawa in the twelfth century AD (565 AH). Idrissi mentions that the city of Mazuna existed since ancient times before Islam for a few centuries, Miles from the sea East of the Farouk basin between the rivers, farms, orchards, markets, and houses of elegance, one of the best in the country is a spot and most of them are fruit, milk, fish and honey.

The German traveler Heinrich von Malestan who visited Morocco in 1852 - 1857 stopped at Mazuna and said: "Mazuna has a population of 2000-3000 N, takes the Arab character without European architecture ... We entered the gate of the South Gate which It leads us directly to the streets where the inhabitants of the Pyrenees sit in front of their one-story houses This is a very beautiful country with an Arab originality sitting on either side of the Wadi Arizan, which pours in a picturesque landscape. Her beauty in love with the Romans then her Amazigh. Is a school of jurisprudence that was specialized in religious sciences such as jurisprudence, fundamentals, interpretation of the Koran, the study of modern science founded by "Sidi Mohammed ibn al-Sharaf al-Baldawi" was an Andalusian Algaen in the year 1029 AH / 1619 AD, and studied about sixty-four years and embarrassed by a large number of great scientists in various sciences And the school was inherited by the descendants of its founder, the most prominent of which was Sheikh Boutaleb, who is Mohammed bin Ali Abu Talib, who became the Sheikh of the corner since 1189 AH / 1775 AD and remained a teacher forty-four years to his death in 1818.

مدرسة مازونة.

تعد مدرسة "مازونة" من أبرز المدارس الكبرى المحلية ببايليك الغرب، وعرفت بمدينة العلم والعلماء والمُثَقِّفين بفضل العلوم الدينية واللغوية التي كانت تُلقَّن بها، واستمرت تشع المعرفة حتى بعد انتقال مركز العاصمة الإقليمية من مازونة إلى مدينة معسكر"5.

هي مدرسة فقهية كانت متخصصة في العلوم الدينية كالفقه، والأصول، تفسير القرآن، دراسة علوم الحديث أسسها "سيدي محمد بن الشارف البلداوي" وكان من اللجيين الأندلسيين سنة1029هـ/1619م "6، ودرس بها حوالي أربع وستون سنة وتخرج منها عدد كبير من العلماء الكبار في مختلف العلوم العقلية والنقلية، ثم توارثت المدرسة أحفاد مؤسسها وكان أبرزهم الشيخ بوطالب وهو محمد بن علي أبوطالب الذي أصبح شيخ الزاوية منذ 1189هـ/1775م وبقي مدرسا بها أربعاً وأربعين سنة إلى وفاته سنة1818م "7.

كان لمدرسة مازونة نظام تعليمي خاص استقتها من مدارس عريقة مثل مدينة تلمسان، ومدارس المغرب الأقصى والأندلس، و علماء مدرسة مازونة الفقهية من أبرز علماء ومدربي التعليم بالجزائر العثمانية، فأشتهروا باطلاعهم الواسع ومعرفتهم العميقة بمختلف العلوم النقلية كالعلوم الفقهية و التوحيد وأصول الدين والفقه وعلوم اللغة وبذلك أصبحت هذه الأخيرة إحدى المحطات المحلية والجهوية التي قصدها عدد كبير من طلبة العلم لأخذ الإجازة من علماءها المعروفين ومنهم، مصطفى بن عبد الله الرماصي، محمد الحرشاي الندرومي، شيخ الجماعة العلامة أحمد بن هني حفيد حفيد الشيخ أبي طالب.

جاء ذكر المساجد في وثيقة بخط الداوي بكداش لصالح ذرية سيدي علي الكتروسي بتاريخ1085هـ/1680م حيث عين باشا الجزائر السيد أبو العباس عبد الله أحمد بن خدة الكتروسي مفتيا و إمام بجامع سيدي عيسى و عزوز يحي بومانع مازونة ط"8، ومن أبرز مساجد مازونة نذكر:

- مسجد سيدي علي بن لحسن بوتامع بني من قبل عائلة الكتروسي عام 1460م وهدمه الاستعمار الفرنسي سنة1850م.

- مسجد سيدي عبد الحق القصبة بناه الأتراك عام 1600م.

- مسجد سيدي محمد بن شارف بني في بداية 1700م من طرف الأتراك.

- مسجد مولاي سويقا (بوعلوقة) بناه الشيخ بلهمل الكبير.

- مسجد المدرسة أسسه أمحمد بن شارف عام 1029هـ.

- كان لمدرسة مازونة نظام تعليمي خاص استقتها من مدارس عريقة مثل مدينة تلمسان، ومدارس المغرب الأقصى والأندلس، و علماء مدرسة مازونة الفقهية من أبرز علماء ومدربي التعليم بالجزائر العثمانية، فأشتهروا باطلاعهم الواسع ومعرفتهم العميقة بمختلف العلوم النقلية كالعلوم الفقهية و التوحيد وأصول الدين والفقه وعلوم اللغة وبذلك أصبحت هذه الأخيرة إحدى المحطات المحلية والجهوية التي قصدها عدد كبير من طلبة العلم لأخذ الإجازة من علماءها المعروفين ومنهم، مصطفى بن عبد الله الرماصي، محمد

الحرشاي الندرومي، شيخ الجماعة العلامة أحمد بن هني حفيد الشيخ أبي طالب، و من أئرز العلماء الذين اشرفوا على عملية التدريس بالمدرسة الفقهية نذكر منهم:

1- أبو طالب محمد بن علي الشارف المازوني:

2- الصادق الحميسي المازوني: ت. 1828 م

3- محمد بن علي السنوسي: 1202هـ/ 1787م، توفي في 09 صفر 1276هـ/ 1859 م بمدينة الجغبوب. ليبيا.

4- الشيخ المعمر أبو طالب محمد المازوني. ت. 1233هـ.

5- الشيخ بن علي بن الشيخ أبي عبد الله المغيلي:

6- الشيخ محمد بن عبد السلام المازوني:

7- الشيخ السيد العربي بن نافلة:

8- الشيخ محمد بن عبد القادر القاضي:

9- الشيخ بن عوالي الزلماطي:

1 سيدي عدة غلام الله: ت. 1283هـ/ 1866 م. "أنموذجا".

يعد الشيخ عدة بن محمد الموسوم بن غلام الله دفين مدينة بوقادير ولاية غيلزان حاليا أحد أعمدة مدرسة "مازونة" الفقهية و الطريقة الشاذلية الدرقاوية بالجزائر، فقد أخذ الطريقة عن شيخه العربي بن عطية الطويل الونشريسي التلميذ المباشر للعربي الدرقاوي، كما تتلمذ عن مشايخ في الفقه والتصوف وكان إنجازته الحضاري في بناء مدارس التربية والعلوم وتوليه القضاء في عهد الأمير عبد القادر"9.

يعد الشيخ عدة بن محمد الموسوم بن غلام الله دفين مدينة بوقادير ولاية غيلزان حاليا أحد أعمدة مدرسة "مازونة" الفقهية و الطريقة الشاذلية الدرقاوية بالجزائر، فقد أخذ الطريقة عن شيخه العربي بن عطية الطويل الونشريسي التلميذ المباشر للعربي الدرقاوي، كما تتلمذ عن مشايخ في الفقه والتصوف وكان إنجازته الحضاري في بناء مدارس التربية والعلوم وتوليه القضاء في عهد الأمير عبد القادر"10.

و يمكن القول أن الشيخ عدة يعتبر واسطة جوهريّة في تاريخ التصوف الجزائري في القرن التاسع عشر، فقد عاش العهد العثماني وآلامه الاحتلال الفرنسي، كما حاول إرساء العدل في دولة الأمير عبد القادر بطلب من هذا الأخير، وعارض الهجرة من الجزائر كحل لواقع الاحتلال.

-تكوينه العلمي:

تعلم الشيخ "عدة غلام الله" مبادئ القراءة والكتابة على يد أبيه ثم على معلم الصبيان سيدي الجيلالي بن المولود البوعبدلي، قرأ على يديه القراءات السبع فجمع القرآن وهو في سن السادسة عشر من عمره، ثم أنتقل به والده إلى قلعة بني راشد التي كانت يومها عاصمة العلم و العلماء حيث تلقى بها العلوم النقلية والعقلية على يد الشيخ سي الحاج بن حمو وابنه سي أحمد بن حمو، ثم أرتحل إلى "مازونة" بعد وفاة والده في شهر شوال 1226هـ وأخذ الفقه على كل من العالم "سيدي محمد بن أبي طالب المازوني"، الشيخ الجليل "سيدي محمد بومهدي المازوني"، الشيخ "سيدي التهامي المازوني".

-توليه القضاء على عهد الأمير عبد القادر:

لما سمع الأمير عبد القادر بشخصية الشيخ سيدي عدة بن غلام الله وعلمه، وصلاحه، وعدله، أسند إليه منصب القضاء فقبله بعد تردد وباستشارة من شيخه سيدي مولاي العربي بن عطية، وكانت خطة القضاء التي كان يشرف عليها تمتد من وادي مينا والظهرة إلى وادي أبيسلي بالشلف. كان الأمير عبد القادر يحبه ويحترمه، ويتجلى ذلك من خلال ما كتبه الشيخ في سيرته الذاتية قائلا: "وبقيت معه يحبني و يعظمني بحيث إذا قرأ رسالتي يبليها و يضعها فوق رأسه...وفي سنة 1257هـ/1841م كنت معه جنبي لجنبه قال له خادمه: لعل أهل الشلف إن هجرنا لا يخرج مهنا إلا عدة بن غلام الله، فقال له الأمير: "إن خرج "عدة" كأنهم خرجوا معنا (يقصد أهل الشلف).

مؤلفاته:

خلف الشيخ عدة بن غلام الله كما هائلا من المخطوطات والذخائر القيمة، مازالت اليمينا حبيسة المخازن العلمية و الزوايا القريبة و البعيدة عرضة للتلف و الإهمال، نذكر منها:

- 1-كتاب: مفتاح القلوب في حديث النبي المحبوب. يقع في جزأين بالخزانة العداوية بمدينة تيارت.
- 2-كتاب: نتيجة الفتاح كطلوع الفجر للصباح. يوجد في جزأين بالخزانة العداوية بمدينة تيارت.
- 3-كتاب: ريحان القلوب في الصلاة على النبي المحبوب. يوجد في جزأين بالخزانة العداوية.
- 4-كتاب: دليل النجاة المبلغ لوضات الجنات على أربعة أرباع.
- 5-كتاب: الجمعة على نمط تنبيه الأنام.
- 6-كتاب: ألفية رمضان.
- 7-كتاب: الصبيان على متن السنوسية.
- 8-كتاب: رسالة الكراس.
- 9-كتاب: طليعة السعداء.
- 10-ديوان شعر.
- 11-كتاب: مرشد القاصد و الطلاب ملخص من الصحيحين.

12-كتاب: "خاتمة الرسائل لأهل الوسائل: يقول الشيخ فيه: "...فمما يجب به الاعتناء فتح باب القلب، فهو أول قدم السائرين في طريق الوصول لمعرفة الرب، قال الله عنه ووفقه وأعانته لما به بلوغ هذا المقام بجاه سيدنا محمد عليه السلام، لما انتهت رسائل المحبين أولاد القلب المحبوبين أفضل من أولاد الصلب، كما هو محقق عند المشايخ الريانيين، وأرثى أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، إذ هم رضي الله عنهم ورضوا عنه ورضي عنا بهم أعظم منزلة على أولاد الصلب لشرفهم العظيم لأنهم خرجوا من نور ذكر القلب الذي هو بيت الرب كما قال في حديث القدسي عن المبلغ عنه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ويقول الله جل جلاله و تقدست أسماؤه: "لا تسعني أرضي و لا سمائي، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن"11.

شروط الالتحاق بالمدرسة:

تُعتبر مدرسة مازونة الفقهية بحق قلعة من قلاع العلوم التقليدية ببابليك الغرب و من بين المدارس الفقهية الرائدة التي تخصصت في تدريس الفقه المالكي والعلوم الدينية والدينيوية المختلفة "12 تخرّج على يد علمائها الأجلة نخبة من الفقهاء والمدرسين والمثقفين خلال العهد العثماني، وكان هؤلاء رواد الحركة العلمية الحديثة التي نشرت العلوم الدينية المختلفة في كل مناطق البلاد، سواء في الريف أو الصحاري، وفي المدن بطابعها التقليدي الصوفي بعدما شحت فيه العلوم في ظل غياب السلطة الزمنية التي كان فيه الاهتمام بالعلم بالعلماء في آخر سلم أولوياتها مقارنة بالقضايا السياسية والأمنية.

وعليه فلقد كان الالتحاق بمدرسة مازونة الفقهية، يقتضي من العالم أو الطالب الانصياع لمجموعة من الضوابط والشروط ومنها:

* ضرورة حفظ القرآن الكريم لأنه واجب ديني لا سيما فيما يخص الطلبة المسافرين والمقيمين بالمدرسة، وفي هذا المقام يقول أبو راس الناصر: "... فقلت له ذاهب لمازونة قال: لم؟ قلت: لقراءة الفقه فقال: والقرآن؟ فقلت له: نعرفه بأحكامه وأنصاه وما يتعلّق به..."13.

* الإنضباط الذاتي وضبط النفس والإلتزام الخلقي بالنسبة للطلبة المقيمين بالمدرسة.

* أن يقبل الطلبة المقيمين النوم باستمرار في المدرسة.

* عدم السماح لأيّ أحد من الطلبة القاطنين بمازونة، ولا من رجال إدارة العلم بها النوم في المدرسة ما عدا المسافرين من العلماء والطلبة.

* ضرورة تكفّل المجتمع المازوني بالإنفاق على المدرسة الفقهية وطلبتها باعتبارها صدقة جارية، بدليل ما ذكره مولاي بالحميسي: "... ولا يقتصر العون على ما ذكرنا بل تكفّلت العائلات بغسل ثياب الطلبة، كما بادر

أهل الإحسان بدفع تكاليف الكراء والتدفئة وشراء الشموع للإنارة"14.

* إحترام مواقيت التدريس (التفرغ للعلم) والمراجعة (المذاكرة).

* إحترام الشيخ المشرف على التدريس وجميع المشائخ الآخرين، والانصياع لأوامر الشيخ واستشارته في الغايات العلمية وغيرها.

* ضرورة الحفاظ على النظام الداخلي والإلتزام به كاللباس الخاص أو الحصول على الطعام والماء والحطب وباقي الاحتياجات، وهذا فيما يتعلق بالطلبة المسافرين المقيمين بالمدرسة"15.
* عدم السماح للمقيم من الطلبة بالخروج من المدرسة إلا عند الضرورة.
* لا يُشترط أن يكون المقيم من المدينة أو البادية.

* ضرورة فصل الطالب المقيم من المدرسة إذا لم يُظهر نبوغه في العلم، فَيُبعد عنها ويقع اختيار مجاور آخر في مكانه، أو إذا أساء مجاورة صحبة أقرانه أو قام بأعمال أو أقوال غير لائقة"16.

-البرامج الدراسية بمدرسة مازونة:-

كغيرها من المدارس التقليدية بالجزائر اعتمدت مدرسة مازونة واقتصر تكوين طلبتها الفقهي على المذهب المالكي بمختصر الشيخ خليل وهو العمدة في الفقه الذي غطى مخالف التصانيف في المشرق و المغرب ويُلقبه الناس لشهرته بالكتاب وتُسَمِّيهِ العوام سيدي خليل، و الكتاب الأصلي في أربعة أجزاء: كتاب الصلاة وكتاب الزكاة، وكتاب البيوع وكتاب الإيجار..."17.

-رسالة أبي زيد القيرواني .

-كتاب: لباب الألباب، و تحفة ابن عاصم، والموطأ، ومدونة سحنون، و بذلك أقتصر برنامج التدريس على هذا المصنف دون سواه.

-دراسة الجزء الأول من الشرح المعنون ب: "منح الجليل على مختصر العلامة خليل" والذي أحتوى عدّة فصول نذكر منها:

- فصل في بيان حكم إزالة النجاسة وكيفيةها.
- فصل في فرائض الوضوء وسننه وفضائله.
- فصل في آداب قضاء الحاجة.
- فصل في نواقض الوضوء.
- فصل في موجبات الغسل وواجباته وسننه ومندوباته وما يناسبها.
- فصل في مسح الخف بدلا من غسل الرجلين في الوضوء.
- فصل في التيمم.
- فصل في مسح الجرح أو الجبيرة أو العصابة.

- فصل في الحيض و النفاس والإستحاضة وما يتعلق بها"18.

طرق التدريس بمدرسة مازونة.

ظلت مدرسة مازونة الفقهية تعتمد في التدريس على العلوم الدينية و النقلية أساسا حتى عهد أبو راس المازوني، كما ظلت الطريقة التقليدية هي أساس التدريس نظرا لظروف العصر.

اعتمدت مدرسة مازونة الطريقة التقليدية في نشر العلوم الدينية و النقلية المختلفة قائمة على أساس الرواية وحفظ العلوم والأسانيد كشرح مختصر الشيخ خليل والرسالة وابن الحاجب وغيرها من الكتب والشروح، و من خلال هذه الطريقة، يقوم أحد الطلبة بقراءة فقرة من الكتاب المُقرّر تدرّسه، ثمّ يقوم الشيخ بشرحها حسب ما تجود به قريحته وينتهي إليه حفظه وإتقانه، فيفسح المجال خلال الدرس أو عقبه للطلبة للمناقشة والتعقيب وطرح الأسئلة إثراءً للدرس وتعميقاً للفائدة"19.

و يذكر سعد الله "أن الحلقة العلمية بالمدرسة تبدأ بأن يطلب الشيخ من أحد طلبته بقراءة نص من المصنف والذي يُمثّل موضوع الدرس، يدخل الطالب إذن مكان الدّرس فيجد المُدرّس أو المُدرّسين وحولهم الطلاب في حلق أو نصف دوائر، وكلّ مُدرّس يتناول مسألة أو كتاباً معيّناً، فإذا كان الطالب قد كوّن فكرة واضحة عن مُدرّس بعينه قبل مجيئه، فإنّه يقصده مباشرة ويجلس إلى حلّته ويتابع دراسته معه في المادة التي يدرسها أو المواد..."20.

خلال إلقاء الدروس تُدرّس شروحات وتقييدات أمّهات الفقه المالكي، فيبتدئ الدّرس بقراءة الكتاب المُراد تدرّسه ويُقتصر فيه على تقرير المتن منذ طلوع الشمس أو بعدها بقليل ليسير إلى قرب الزوال درساً واحداً ومن بعد صلاة الظهر إلى قبيل المغرب درساً، ولا يستطيع ذلك إلاّ مهرة ممّن لا يحتاج غالباً إلى مراجعة في تقرير المتن وحلّ أشكاله ويُسمّون ذلك "سرداً"، فبذلك تيسّر إلقاء مثل مختصر الشيخ خليل في أربعين يوماً والألفية في عشرة أيام من تجزئة المختصر بأربعين جزءاً لكلّ يوم جزءاً، نصفه في درس أولّ النهار ونصفه في درس آخره، ومن تجزئة الألفية بعشرة أجزاء لكلّ يوم جزء كذلك إلى غاية انتهاء الطريقة التعليمية لمشايخ وعلماء المدرسة الفقهية"21.

و من جهة أخرى، أنّ الامتحانات لم تكن معروفة بمدرسة مازونة"22 و السائد هو أن الشيخ كان يكلف الطالب الذي أخذَ بسهمٍ وافٍ من العلوم بمساعدة الطلاب على تكوين فكرة عن الدّرس الجديد قبل أن يشرحه، ثم يقوم الشيخ بفتح باب المناقشة بعد نهاية كلّ حلقة علمية، ذلك أنّ عملية التّدرّس تضمنت أساسا الطرفين الشيخ والطالب ومن أجل إنجاحها يجب أن يشترك الطرفان في تيسيرها إلى درجة الاستيعاب و الفهم، و حين يختم أحد الطلبة الدّرس يمنحه أستاذه إجازة خاصة لتدريس علم مُعيّن أو عدد من العلوم أو إجازة عامّة لتدريس كافّة العلوم"23.

و بالإضافة إلى ذلك، كانت مدرسة مازونة تتمتع بحرية في وضع البرنامج التعليمي وفي تحديد أوقات التدريس وعقد الحلقات العلمية، والتي يكون التركيز فيها من طرف الشيخ على الفكرة العامة من النص، فيأخذ أولاً في شرح المسألة وتوضيحها و الاستشهاد لها من محفوظه (المنقول) ومعقوله (الحواشي والتصانيف الفقهية). بحيث قد لا يُنهي الشيخ المسألة في نفس الحلقة، ذلك أنّ ميزة الشيخ التّاجح هي الخوض في الجزئية الواحدة عدّة مرّات ومن عدّة وجوه، فكلمًا أطال الشيخ في المسألة وأفاضَ فيها كلّما كان ذلك من ميزات نجاحه، وعادةً ما كان يختم حلقاته العلمية بإملاء خلاصات على الطلاب فينسخونها بحذق وعناية"24.

و إذا كان الشيخ يتميّز بتبحّره في العلوم الفقهية والشريعة، فكان بالضرورة على الطلبة أثناء الحلقة العلمية تسجيل الدّرس كلّه حريصين في ذلك على ألا يفوتهم شاردة أو واردة من درس شيخهم خلال عملية التلقين، و يحفز الطلبة على حُبّ الإطلاع والتزوّد بالمعرفة، باعتمادهم على التصانيف والشروح والحواشي الفقهية، وهذا ما يؤكّده محمد بن علي السنوسي في قوله: "فمنهم أبو طالب سيدي محمد بن علي بن الشارف قرأت عليه النصف الأول من المختصر مرارًا قراءة تحقيق وتدقيق، مطرزة بجزيل الفروع النقلية والفوائد السنيّة، وقرأت على حفيده أبي العباس أحمد بن هني النصف الثاني من المختصر وناولني شرحه الكبير كما ناولني حاشيته المذكورة على الخرشي في جزئين ضخمين أمر لي بإقراء ما أقرؤه عليه، وبمراجعة ما يقرؤه ويُطالبه لنا حفيده المذكور من شرح الخرشي..."25.

و رغم الطابع التقليدي الذي تميزت به مدرسة مازونة الفقهية في تسيير ووضع المناهج التعليمية، إلا أنها كانت على درجة كبيرة من التنظيم المُحكّم في تسيير المؤسسة التعليمية، فقد وُجدت العطلة الأسبوعية والصفية للطلبة: "كانت الدروس لا تتوقّف سوى مساء الأربعاء ويوم الخميس، فيستريح الطلبة في العطلة الأسبوعية وما أحوجهم إلى ذلك... وكذلك تتوقف الدراسة خريفًا وشتاءً وربيعًا أمّا الصّيف- فصل الحر و الاسترخاء- فيتوقّف النشاط إلى أن يحلّ اعتدال الطقس فتُستأنف الدروس..."26.

و عموماً لم يكن التعليم في المدارس الجزائرية خلال العهد العثماني منهج واضح المعالم، فلكل مدرسة منهجاً خاصاً بها بالإضافة إلى نوعية العلوم التي تدرس والطريقة التي كان الأستاذ يعتمد عليها في تدريسه، فمنهم من ينهج الطريقة الحوارية و المناقشة و الغالبية تعتمد طريقة الإملاء.

ظلت مدرسة مازونة منذ نشأتها في مسهل القرن السادس عشر في تدريس العلوم النقلية أساساً هذا ما جعلها قبلة للطلبة حتى ضاقت بهم حلقات العلم لكثرة عددهم، وكانت المادة الأساسية فيها- إن لم نقل الوحيدة- هي الفقه المالكي، بدليل ما قاله أبو راس الناصر: "... و كنت من جلة تلامذته و معدودا من طلبته فقعدت في طرف الحلقة للزحام الكاظم والضيق الفاحش الهاض فكانت في الأعيان كحلقة ابن تيمية..."27، و قول الشيخ

مصطفى الرماصي: "لمّا كان علم الفقه أفضل العلوم بعد كتاب الله وسنة رسول الله إذا به تعرف الأحكام ويتميّز الحلال من الحرام".²⁸

خلال إلقاء الدروس تُدرّس شروحات وتقييدات أمّهات الفقه المالكي، فيبتدئ الدّرس بقراءة الكتاب المُراد تدريسه ويُقتصر فيه على تقرير المتن منذ طلوع الشمس أو بعدها بقليل ليسير إلى قرب الزوال درسًا واحدًا ومن بعد صلاة الظهر إلى قبيل المغرب درسًا، ولا يستطيع ذلك إلاّ مهرة ممّن لا يحتاج غالبًا إلى مراجعة في تقرير المتن وحلّ أشكاله ويُسمّون ذلك "سردًا"، فبذلك تيسّر إلقاء مثل مختصر الشيخ خليل في أربعين يومًا والألفية في عشرة أيام من تجزئة المختصر بأربعين جزءًا لكلّ يوم جزءًا، نصفه في درس أولّ النهار ونصفه في درس آخره، ومن تجزئة الألفية بعشرة أجزاء لكلّ يوم جزء كذلك إلى غاية انتهاء الطريقة التعليمية لمشايخ وعلماء المدرسة الفقهية".²⁹

أشار الونشريسي في معياره: "أن المعلمين كانوا مطالبين بتصحيح الأخطاء الواردة في ألواح الصبيان، و تعليمهم حسن قراءة القرآن وتجويده إضافة إلى أحكام الوضوء و الصلاة، كما كانوا ينهون عن القسوة عليهم إذ لم يكن يسمح لهم بمعاقتهم مهما بدر منهم من سوء أدب أو الهروب من الكتاب إلا بعد استشارة أوليائهم"³⁰.

وأضاف قائلًا عن صفات المعلم وطريقة عقابه للصبيان: "ينبغي أن يكون المعلم مهيبًا لا في عنف، لا يكون عبوسًا مغضبًا ولا مبسطًا مرفقًا بالصبيان دون لين...وصفة ضربه للصبيان ما لا يؤلم و لا يتعدى إلى التأثير المستبشع أو الموهن المضر... ولا يضربه على رأسه و وجهه...و الضرب في ساق الرجلين آمن وأحمد للسلامة"³¹

ومن جهة ثانية ذكر الونشريسي أن مساجد المغرب الأوسط كانت تعج بالفقهاء والعلماء حيث كان الطلاب يتحلّقون حول الشيوخ لتلقي مختلف العلوم لكن يبدو أن واقع التعليم أصبحت مزرية ويعزى ذلك إلى انتصاب الجهال للفتوى و التدريس"³²

جاء وصف طريقة التدريس لمدرسة مازونة و غيرها من المدارس الأخرى على لسان عدة رحالة ومؤرخين أجنب، فبينوا إيجابيتها وسلبياتها حيث يقول كانكارت: "...والكتب التي تدرس في هذه المدارس هي القرآن والتفسير، وهم يكتبون بأقلام مصنوعة من القصب، على ألواح مربعة مصنوعة من الخشب تطلى بنوع من الصلصال الأبيض، وبعدها يحفظ الطالب درسه نمحى اللوحة بغسلها بالماء، وهكذا دواليك، وهي طريقة اقتصادية للغاية بالنظر إلى أنهم لا يستهلكون الورق إطلاقًا في عملية القراءة"³³، وهو يثني على جمال الخط

العربي رغم بساطة الوسائل فيقول: " والتعجب أنهم يكتبون خطا عربيا في غاية الجمال، ولقد أتيج لي أن أرى مصاحف مكتوبة بالخط العربي يشرف أعظم مكتبة في العالم أن تقوم بإنجاز مثلها"34.

ولقد انتشرت هذه الطريقة عبر جميع المدارس والكتاتيب والزوايا، "فالمؤدب كان يجلس عادة في صدر الكتاب متربعا على الحصير أو نحوه، مستندا ظهره إلى الجدار، مرتديا عمامة وجبة فوقها أحيانا برنس، و بيده عصا طويلة تصل إلى أبعاد تلميذ عند الحاجة، وكان يلتفت بيمينه ويساره يراقب حركة التلاميذ وأدائهم لواجباتهم"، وكان التلاميذ يلتفتون حول المدرس، ويشكلون نصف دائرة جالسين على الحصير.

تمثل هذه المرحلة الابتدائية، والظاهر إن المسجد أو الكتاب كان المنشأة الخاصة بهذه المرحلة، ويعقب إتمام التلميذ لهذه المرحلة بعد تمكنه من حفظ القرآن باحتفال وسط المدينة، و يؤكد بيتيس دي لاكروا (de la croix): "المرابطون marabouts يديرون الكتاتيب ويقرؤون وهم يغنون، وعندما يرتكب التلميذ ذنبا يضرب على قدميه، لكن إذا حفظ القرآن عن ظهر قلب فإنهم يجوبون به وسط أنغام الموسيقى وهو يرتدي اللباس الفاخر و المصحف على رأسه ويمشي وراءه جميع التلاميذ"35.

و يؤكد الرحالة شالر هذه الحقيقة قائلا: " ومع ذلك فإن مدينة الجزائر تملك كثيرا من المدارس العادية التي يتردد عليها الأطفال ابتداء من سن الخامسة والسادسة فصاعدا، حيث يتعلمون القراءة والكتابة، ونظرا لأن الأمور لا تتطور بسرعة في هذه البلدان، فانا أميل إلى الاعتقاد بأننا مدينون للعرب بالطريقة التربوية التي تعرف عندنا باسم "الإنكاستر"، فكل تلميذ يحمل لوحة يمكن الكتابة عليها ومحو ما كتب بسهولة وعلى هذه اللوحة تكتب بوضوح سورة من القرآن ثم يقوم بعض التلاميذ بنقلها بعناية، كل على لوحته وبالتالي، التلميذ الذي يتعلم معنى الكلمة وطريقة كتابتها، يقوم بتعليم ذلك للتلاميذ، ويعلم الدرس بصوت مرتفع تلميذ كبير أو معلم يجلس في مكان مرتفع (سدة) وفي يده عصا يستعين بها لحفظ النظام ولإثارة انتباه الطلبة"36.

الخلاصة:

ظلت مدرسة مازونة الفقهية خلال أزيد من ثلاثة قرون قلعة من قلاع العلم و الثقافة في الجزائر العثمانية، تخرج منها المئات من العلماء و الطلبة من مختلف أرجاء الجزائر يتقدمهم العلامة الراشدي أبو راس الناصري و الشيخ السنوسي الذي ما زالت تصانيفه في علوم التوحيد تدرس في الأزهر الشريف و القرويين و الزيتونة، وهذا بفضل علمائها الجهابذة الذين سخروا كل أوقاتهم خدمة للعلم و العلماء، كما أنهم كانوا سباقين إلى إنشاء رباط و

دعم الثغور التي كان هدفها بالدرجة الأولى خدمة الجهاد في سبيل تحرير وهران من الاحتلال الأسباني الإيبيري يتقدمهم الشيخ و العلامة أبو طالب المازوني الذي قصد الرباط وهران ماشيا على الأقدام من مدينة معسكر إلى وهران.

و من جهة ثانية ظلت مدرسة مازونة منذ نشأتها في مستهل القرن السادس عشر تدرس العلوم النقلية أساسا هذا ما جعلها قبلة للطلبة حتى ضاقت بهم حلقات العلم لكثرة عددهم، وكانت المادة الأساسية فيها- إن لم نقل الوحيدة- هي الفقه المالكي تُدرّس شروحات وتقييدات أمّهات الفقه المالكي، و أثناء ختم المختصر من طرف الطلبة الذي يحضره عادة الأعيان، الأهالي، الزوّار، يأتي الناس راجلين أو راكبين فلا تجد موضعا داخل الجامع أو خارجه أو بجواره... ويطول الحفل لطول البرنامج من تلاوة القرآن وخطب حول المختصر وأشعار بالعامية أو بالفصحى وأدعية للشيخ.

الهوامش:

¹ Marmol-carvajal. DESCRIPTION general de Afrika. P.245.

² الأدريسي، وصف أفريقيا الشمالية و الصحراوية، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق، ص72.

³ هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا، ج2، الجزائر، 1976، ص98.

⁴ Jacque Berque. Linterieur du Maghreb du 15-19siecle. Ed. Gallimard. Paris. P.21.

⁵ بوجلال قدور، العلم والعلماء في بايليك الغرب 1830/1711م-معسكر نموذجاً-مذكرة ماجستير، جامعة معسكر، 2009/2008، ص187.

⁶ ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، 1830-1500، دار الغرب الإسلامي، 1998، ص286.

Jacques Berque. Linterieur du Maghreb. op. cit. P.21. 7

⁸ مولاي بلحميسي، مازونة مقصد الدارسين وقلعة الخليليين، الجزائر، منشورات المجلس العلمي، 2005، ص30.

⁹ سلسلة القوافل العلمية، دور الشيخ عدة بن غلام الله في نشر الحكمة الصوفية وممارسة القضاء، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011، ص5.

¹⁰ سلسلة القوافل العلمية، دور الشيخ عدة بن غلام الله في نشر الحكمة الصوفية وممارسة القضاء، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2011، ص5.

¹¹ ذكره ابن عربي في كتاب التراجم، ص224، وكتاب التجليات ص331.

¹² جنان الطاهر: مازونة عاصمة الظهرة: نغرحربي ومركز إشعاع حضاري، الجزائر، مكتبة الرشاد للطباعة و النشر والتوزيع، 2005، ص93.

13 أبو راس الناصر: فتح الإله ومنتته في التحدث لفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، 1990، ص 20.

14 "المرجع نفسه"، ص: 31.

15 بوكفة يوسف: مدرسة مازونة الفقهية: النهضة و السقوط، رسالة ماجستير في علم الاجتماع، وهران، 2002-2003، ص 31.

16 مولاي بالحميسي: معلم القرآن في التاريخ و الفقه و الأدب، الجزائر منشورات المجلس العلمي، 2007، ص 38.

"17 نفسه، ص. 33.

18 مولاي بالحميسي، مازونة مقصد الدارسين.. مرجع سابق، ص. 34.

19 زيدان نعيمة.. سيرورة المدرسة الجزائرية""مجلة المواقف:" مجلة الدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ: تصدر عن المركز الجامعي مصطفى اسطمبولي، معسكر، العدد الأول، جانفي/ ديسمبر 2007، ص: 27.

20 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر... ج 1، مرجع سابق، ص 348.

21 ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ- العهد العثماني-ج 4، م. و. ك، الجزائر، 1984، ص 202.

22 العيد مسعود: حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة: "سيرتا" العدد: 03، مايو 1980، ص 67.

23 نفسه، ص. 68.

24 بوكفة يوسف: مدرسة مازونة الفقهية...، "المرجع السابق"، ص 53.

25 ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ...، "مرجع سابق"، ص 196.

26 مولاي بالحميسي، مازونة مقصد الدارسين، "مرجع سابق"، ص 38.

27 أبو راس الناصري، فتح الإله...، مصدر سابق، ص 20.

28 مولاي بالحميسي: مازونة مقصد الدارسين...، "مرجع سابق"، ص 32.

29 ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي: الجزائر في التاريخ...، "مرجع سابق"، ص 202.

30 الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقيا والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، ج 8، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 243.

31 نفسه، ص 257.

32 الونشريسي، المعيار المعرب... ج 2، مصدر سابق، ص 502.

33 كانكارت، مذكرات أسير الداوي كانكارت قنصل أمريكا بالمغرب، ترجمة و تعليق وتقديم، إسماعيل العربي، د. م. ج. الجزائر، 1982، ص 98.

34 نفسه، ص 98.

35 مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر، ش. و. ن. ت، ص 32.

36 وليام شالر، مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، تعريب و تعليق و تقديم إسماعيل العربي، ش. و. ن. ت،

الجزائر، 1982، ص 82.